

تلقي مفاهيم الدراسات الثقافية في النقد العربي.

Reception of cultural studies concepts in Arabic criticism

أ.صراح سكيبة تلمساني*

تاريخ الاستلام: 14- 03- 2019 / تاريخ القبول: 03- 04- 2019

doi 10.33705/0114-023-004-017

التعريف الرقمي للمقال:

ملخص: ظهرت الدراسات الثقافية نتيجة التطورات الفكرية المرتبطة بما بعد الحداثة، حيث قوّضت المركزية ونتج عنها الانتقال من سلطة النص إلى سلطة الثقافة.

سنتوقف في مداخلتنا عند نموذجين من النقاد العرب الذين تلقوا وتمثلوا مفاهيم الدراسات الثقافية. نبدأ مع الناقدة "رضوى عاشور" من خلال دراستها "التابع ينهض - الرواية في غرب إفريقيا -" و "صيادو الذاكرة"، ثم نمر إلى الناقد "نادر كاظم" من خلال دراسته: "تمثيلات الآخر - صورة السود في المتخيل العربي الوسيط"، الذي أفاد من عدد من المفاهيم مثل "الآخر" و "التمثيل" و "القراءة الطباقية".

كلمات مفتاحية: الدراسات الثقافية؛ السرد المضاد؛ المقاومة الثقافية؛ الآخر.

*المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة الجزائر، البريد الإلكتروني: sarahtlemsani86@gmail.com

(المؤلف المرسل)

Abstract: Cultural studies emerged as a result of intellectual developments associated with postmodernism.

This study aims to researching how Arab critics received the concepts of cultural studies, and especially the Egyptian critic **Radwa ASHOUR** who worked on a concept of "counter narration and "cultural resistance", and the critic "**Nadhir KADHIM**" who hired many concepts of cultural studies as: "**Contrapuntal reading**", "**Other**" and "**Representation**".

Keywords: cultural studies; counter narration; cultural resistance; Other.

1. مقدّمة: عرفت السّاحة النّقديّة الغربيّة تطوّراتٍ في المناهج النّقديّة وطرق وآليات قراءة النّصوص، فبعد أن كانت المناهج السّياقيّة مهيمنة على السّاحة النّقديّة في وقت من الأوقات أين كان النّقاد يرون في المنهج النّفسي، والاجتماعي، والتّاريخي أكثر المناهج ملائمة لمقاربة النّصوص الأدبيّة، حدثت تطوّرات في المناهج النّقديّة حيث استُبدلت المقاربة السّياقيّة بمقاربة نصيّة في الوقت الذي هيمنت عليه المناهج النّسقيّة والقراءة المحايثة للنصوص. وقد استمرّ حال النّقد إلى أن حدثت تطوّرات فكريّة ارتبطت بظهور ما بعد الحداثة قوّضت المركزيات، وتجاوزت الرّؤيا الأحاديّة، وهذا ما أدى إلى ظهور "**الدّراسات الثّقافيّة**" (cultural studies) التي جاءت مرتبطة بهذا السّياق ونتج عنها الانتقال من سلطة النّص إلى سلطة الثّقافة التي تجاوزت الاهتمام بالجانب الجمالي، وركّزت على السّلطة الثّقافيّة للنص ومراعاة سياقاته الثّقافيّة.

لذا نسعى من خلال هذه الدّراسة معالجة الإشكاليّة الآتيّة:

كيف كان تلقي وتمثّل مفاهيم الدّراسات الثّقافيّة في السّاحة النّقديّة العربيّة؟

2. تمهيد نظري: تزامن ظهور الدّراسات الثّقافيّة مع عدد من التّغيرات التي عرفها المجتمع الغربي، حيث "تبوّأت هذه الدّراسات مكانة مرموقة وخلقت لها حضوراً ملموساً في مجال العمل الأكاديمي، والفنون، والعلوم الإنسانيّة، والعلوم الاجتماعيّة، وحتى في مجال العلم والتّكنولوجيا". (زيودين ساردار وبورين فان لون، 2003).

نظرا لعوامل الاحتكاك والاتصال بالغرب سواء أكانت وسائل مباشرة، أم غير مباشرة حدث نوع من التفاعل النقدي مع الغرب وهنا السياق لا يتسع حتى نذكر بدايات التأثير بالغرب والاحتكاك بهم، وهناك أسماء لها قصب السبق في التأثير بالغرب، ونقل تجاربهم وتكفي قراءة أعمال "رفاعة الطهطاوي"، وغيرها من الأعمال العربية التي جسدت مظاهر الاحتكاك بالغرب والتفاعل معه، وقد كان هذا في مرحلة زمنية سابقة، يمكن أن نطلق عليها -إن صح التعبير- مرحلة البدايات.

أما إذا تحدثنا عن الأسماء النقدية المعاصرة، فإنه لا يمكننا تجاوز عدد من الدراسات الرائدة، والمشاريع الهامة التي عمل أصحابها على البحث في الأنساق الثقافية، وقراءة النصوص في سياقاتها الثقافية، مثل الدراسة الموسومة "النقد المزدوج" لعبد الكبير الخطيبي، وكذا أعمال "عبد الفتاح كليطو" و"عبد الله إبراهيم" و"عبد الله الغدامي"، وغيرهم.

لكننا سنتوقف عند نموذجين من النقاد العرب الذين مارسوا التحليل الثقافي للنصوص، واشتغلوا على نصوص من التراث العربي، ونصوص غربية في الوقت ذاته إلا أنهما لم يحظيا باهتمام كبير وسط الساحة النقدية مقارنة بأسماء أخرى رغم أن أعمالهما تتسم بالجدية، والأصالة، والاستيعاب الجيد للمفاهيم الغربية.

وهنا يأتي الحديث عن الناقدة والروائية المصرية "رضوى عاشور"، والباحث والناقد الأكاديمي البحراني "نادر كاظم". وستكون البداية مع مشروع "رضوى عاشور".

3. رضوى عاشور (1946-2014): روائية وناقدة وأستاذة جامعية مصرية، لها عدد من الأعمال الروائية الهامة مثل: "ثلاثية غرناطة" و"أطياف" و"الطنطورية" و"قطعة من أوروبا" وغيرها. كما صدرت لها دراسات نقدية كثيرة، سنتوقف من خلال دراستنا عند عمليتين، وهما: "التابع ينهض - الرواية في غرب إفريقيا -" و"صيادو الذاكرة".

1.3 رحلة التابع ينهض: ستكون البداية مع "التابع ينهض"، وهي دراسة تراوحت محاورها بين نشأة الرواية في غرب إفريقيا كشكل من أشكال التمرد على

المضمون الإيديولوجي للاستعمار والدّور الذي يحتاجه الكاتب في تأكيد الثّقافة الوطنيّة كما يعرض للجهود الرّائدة في إفريقيا من خلال دراسة تحليليّة لعدد من الرّوايات الإفريقيّة المناهضة للاستعمار في إطار ما يعرف بالزّنوجة. كما لم تغفل الباحثة قضية العلاقة بين الكاتب الإفريقي، وتاريخه الذي تعرّض للطمس والتّشويه. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الدّراسة رائدة في النّقد العربي إلّا في أضيق الحدود. (رضوى عاشور، 2016).

تنوّعت الدّراسات الواردة في هذا العمل، وتناولت المسيرة الفكرية لعدد من الكتاب الأفارقة الذين عملوا على جعل الكتابة الإفريقيّة وسيلة للرد على الآخر مثل تجربة "كامارا لاي" (Camara LAYE) و"تشينوا أتشيبي" (Chinua CHEBE) و"سمبين عثمان" (Ousmane SEMBENE)، الذين يمثلون الرّيعيل الأوّل من الكتاب الأفارقة.

وتعتبر اللغة من القضايا الهامّة التي اشتغلت عليها "رضوى عاشور"، فبالنسبة للكتاب الأفارقة تشكل أحد الهموم الأساسيّة للعديد من كتاب القارة، كما أنّ اللغة تمثّل قضية هامة سلّطت عليها الدّراسات الثّقافيّة، ودراسات ما بعد الكولونياليّة الضّوء وهذا ما جعل أحد النّقاد لما يتطرّق للتجربة النّقدية لـ "رضوى عاشور" يصفها بأنّها: "من الإستراتيجيات النّقدية ذات التّصور الواعي بحدود خطاب ما بعد الكولونياليّة لا سيما دراستها التي تنتهج الأداة التّطبيقية، حيث ينهل في مقارباتها من أدبيات خطاب ما بعد الكولونياليّة الكثير من أفكارها ورؤاها، وحتى منهجيتها". (رامي أبو شهاب، 2013).

وما ينبغي التّنويه به أنّ دراسة "رضوى عاشور" حول التّابع صدرت أول مرة سنة 1980، وهي مرحلة متزامنة وظهور دراسات ما بعد الكولونياليّة عند الغرب، ونفسر هذا باطلاعها المباشر على مستجدّات النّقد الغربي كونها درست هناك، وحصلت على شهادة الدّكتوراه من أعرق الجامعات الأمريكيّة.

سنحاول من خلال هذه الدّراسة تسليط الضّوء على مقالها الموسوم: "قضية اللغة" وهو مقال من المقالات الواردة ضمن كتاب: "التّابع ينهض".

تفتتح رضوى هذا المقال باقتباس من مسرحيّة "شكسبير" "العاصفة"، والحوار الذي يدور بين "بروسبيرو" و"كاليبان" يعكس صورة العلاقة بين السيّد الأوروبي الذي

بدأ يفرض سيطرته على الكرة الأرضية، ويبرر هذه السيطرة بتفوقه العرقي والحضاري ويعمل على تهميش الساكن الأصلي وتحويله إلى تابع.

لقد جعلت "رضوى عاشور" كلمات "شكسبير" من خلال الحوار بين كاليبان وبروسبيرو حواراً كتمهيد لمناقشة اللغة لدى الكتاب الأفارقة، وتصر "رضوى" على "أن قضية اللغة كما طرحها شكسبير ليست منفصلة عن قضية المعرفة والتراث والتاريخ". (رضوى عاشور، 2016).

فشعب بلا لغة هو شعب بلا تاريخ، شعب بلا هوية، هذه الإشكالية اشتغلت عليها الناقدة في هذه الدراسة من خلال تسليط الضوء على الكتابة الإفريقية أين تساءلت عن سبب اختيار الكتاب الأفارقة الكتابة باللغة الوافدة وليس باللغة الأصلية. (رضوى عاشور، 2016).

ومن خلال هذه الجزئية عملت "رضوى عاشور" على إبراز مساوئ الكتابة بلغة المستعمر، وإيجابياتها في الوقت ذاته؛ ذلك أن الكاتب الذي يوظف لغة المستعمر يمكنه أن ينتشر خارج وطنه لأن اللغات الإفريقية تتسم بالمحلية، ولم تلق الزواج الذي لاقته لغات المستعمر، وترى الناقدة في سياق آخر أن الكتابة بلغة المستعمر لها عدد من المساوئ في الوقت ذاته ترجعها "رضوى" إلى أن الكاتب في غرب إفريقيا يجد نفسه في صراع مستمر مع اللغة الخاصة كإنسان إفريقي في سياق اجتماعي وحضاري بعينه، ولكنه يفعل ذلك بلغة دخيلة خلقتها تجربة تاريخية وحضارية لإنسان آخر هو الإنسان الأوروبي والأكثر من ذلك أن الكاتب الإفريقي يجد نفسه في مأزق حين يستخدم هذه اللغة ليعبر عن رفضه لصاحبها". (رضوى عاشور، 2016).

وهنا نجد الناقدة من خلال هذا المقال عرضت تجارب إفريقية رائدة أنارت هذا الموضوع مثل تجربة الكاتب النيجيري "تشرينوا أتشيني"، كما أشارت إلى تجربة "أموس تيوتولا" التي تعتبرها رضوى عاشور رائدة، ويرجع لها الفضل في المبادرة لتقديم أول نص روائي يطرح حلاً جذرياً للمشكلة اللغوية. (رضوى عاشور 2016).

2.3 صيادو الذاكرة: نموذج آخر من النماذج النقدية لرضوى عاشور اشتغلت فيه على نصوص أدبية، ونقدية مختلفة من الأدب العربي والآداب الأجنبية، وقد

قسمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام قسم يضمّ قراءات نقدية يتناول أغلبها نصوصاً من الأدب العربي الحديث، وقسم يضم أربع دراسات كتبت باللغة الإنكليزية ثم ترجمت إلى العربية، أمّا القسم الثالث فيضم شهادات ومحاضرات تجمع بين التّناول النّقدي والتّعبير الذّاتي.

تزخر الدّراسة الموسومة "صيادو الذاكرة" بالدّراسات المتنوّعة، وقد تنوّعت هذه الدّراسات بين أعمال من الأدب العربي والأدب الأجنبيّة، وتنتمي إلى حقبة زمنيّة مختلفة. إلّا أنّ ما يعنينا من هذه الدّراسة مقالها الذي نلمس فيه حضور مقولات الدّراسات الثّقافيّة، وعدداً من المفاهيم الأساسيّة في خطاب ما بعد الكولونياليّة التي اشتغلت عليها الباحثة مثل مفهوم "السرد المضاد" (counter-narration) و"المقاومة الثّقافيّة" (Cultural resistance)، اللذين يمثلان محاور اشتغال الدّرس الثّقافي. وهاتان الدّراستان هما:

"صيادو الذاكرة: فلسطين 1948"، وهو دراسة عن نصوص من الأدب العربي وقلب الظّلام"، وهو دراسة عن نص ينتمي إلى الأدب الغربي.

ستكون البداية مع الدّراسة الموسومة: صيادو الذاكرة: فلسطين 1948". وهي دراسة موضوعها فلسطين 1948، في أربعة نصوص روائية، حيث ركزت الكاتبة على حوار هذه النّصوص مع الواقع التّاريخي، وهذه الأعمال هي:

1- رواية العاشق لغسان كنفاني.

2- "الوقائع الغريبة لاختفاء السّعيد أبي النّحس المتشائل" لإميل حبيبي.

3- "أرابيسك" لأنطوان شماس.

4- "باب الشّمس" لإلياس خوري.

علماً أنّه يوجد رابط بين الأعمال الأربعة المدروسة، وهو الرّبط بين الحكاية والذاكرة ووعي الهوية، كما أنّ هذه النّصوص محاولة لتأريخ نكبة عام 1948. وإذا أردنا ربط هذه الدّراسة بواقع الدّراسات ما بعد الكولونياليّة فإنّنا نجد أنّ قراءتها للنّصوص السّابقة الذّكر تصبّ في صميم خطاب ما بعد الكولونياليّة لأنّها تشغل على مفهوم السرد

المضاد، ومدى تحوّل الكتابة إلى وسيلة من وسائل المقاومة الثقافيّة، فدراستها للروايات الأربع عبارة عن توثيق للتاريخ الشفهي، واهتمام بخصوصيّة المجتمع الفلسطيني التي هُمشت، وبهويته التي طُمست.

بينت "رضوى" أثناء قراءتها لتلك النصوص أهميّة الرّد بالكتابة كفعل مقاوم للآخر (المستعمر)، وكيف يمكن للقضيّة الفلسطينيّة ولقضيّة الشتات الفلسطيني أن تصل إلى الخارج من خلال فعل الكتابة. كما جاء التأكيد على إعطاء أهميّة بالغة لفعل الرّد من خلال جمع كم كبير من شهادات أهالي قرى الجليل الذين يعيشون في مخيمات لبنان وتحكي تفاصيل ما حدث مع استخدام قدر لا يستهان به من تلك المادة الوافيّة، كما كان في نص "إلياس خوري": "باب الشّمس" (رضوى عاشور، 2001).

لم تتوقّف "رضوى" عند نصوص الأدب العربي، بل نجدها تقدّم قراءة لنص "قلب الظّلام" لجوزيف كونراد، أين ترى في روايته: "محاولة لتقديم هوة (يعتقد الكاتب بوجودها) بين الاستعمار كفكرة، والاستعمار كممارسة: فكرة نقل الحضارة إلى إفريقيا والنّهوض بأهلها. (رضوى عاشور، 2001).

تحاول دراسة "رضوى عاشور" أن تقوِّض الرّؤية الإمبرياليّة التي ترى أنّ رواية "قلب الظّلام" معارضة للإيديولوجيّة الاستعماريّة، فتتساءل إذا كانت فعلاً رواية قلب الظّلام تقدّم نقداً للاستعمار. (رضوى عاشور، 2001)

إنّ النّاقدة ترفض هذه الفكرة، وتستند إلى مقاطع من رواية "كونراد" تدحض هذه الفكرة، فتتساءل كيف نفسّر صورة الأفارقة في الرواية، والتّغيرات العنصريّة المرتبطة بهم، فالأفارقة في نص كونراد متوحشون. (رضوى عاشور، 2001).

وأثناء تحليلها لنص "كونراد"، واشتغالها على نص: "قلب الظّلام" باعتباره موتيفاً إيديولوجياً، رأت "رضوى عاشور" أنّ كونراد يحمل رؤية مقدّسة للرحالة الأوروبيين الذين قادوا الرّحلات الاستكشافيّة إلى إفريقيا وأمريكا، كما رأت أنّ: "إفريقيا كانت في الخطاب الرّوائي الشّائع مظلمة بالمعنى الحرفي والمجازي، فهي مساحة غامضة ومجهولة، وهي أيضاً ترتبط بالشّرّ وغياب نور الهداية". (رضوى عاشور، 2001).

ونستشفّ من خلال دراسة النّاقدة لقلب الظّلام أنّها تحمل رؤية مقوّضة لرؤية كونراد، بل وتفنّدها، وهنا تصبّ في صميم اهتمامات الدّراسات ما بعد الكولونياليّة، التي تعدّ مجالاً من المجالات التي يهتم بها الدّرس الثّقافي على اعتبار أنّ نص "قلب الظّلام" نص كولونيالي بامتياز، وبما أنّ "رضوى" قامت بتقويضه وتفنيده، فقراءتها له عبارة عن قراءة ما بعد كولونياليّة.

4. نادر كاظم (1973-2004): ناقد وأكاديمي بحراني وصاحب مؤلّفات عديدة منها: "الهويّة والسرد" و"عبد الله الغدامي والممارسة النّقدية الثّقافية" و"المقامات والتلقي".

سنتوقّف عند دراسته الموسومة: "تمثيلات الآخر (صورة السّود في التّخيل العربي)"، وهي عبارة عن أطروحة قائمة على ثلاثة مفاهيم أساسية، وهي: "التّمثيل" و"التّخيل" و"مسألة الآخر". وقد عرّف الباحث هذه المفاهيم في بداية عمله قائلاً:

"التّمثيل فهو ضرب من العمليات التي تدور حول طريقتنا في النّظر إلى أنفسنا والآخرين، وطريقتنا في عرض أنفسنا وتقديم الآخرين أو غرضهم أو استحضارهم كما تصوّرهم الثّقافة التي تمارس التّمثيل" (نادر كاظم، 2004)، ويتطرّق الباحث إلى مفهوم ثانٍ وهو مفهوم: "التّخيل" باعتباره مفهوماً يشير إلى شيء متشكل تاريخياً في اللاوعي لثقافة الأمّة، هو قابل للاستثارة والتّحريك، كلما دعت الحاجة إلى ذلك" (نادر كاظم 2004).

أمّا المفهوم الثّالث الذي تطرّق له النّاقد من خلال هذه الدّراسة فهو "الآخر"، الذي يعدّ من صميم الدّراسات الثّقافية أين نجد الباحث يركّز على النّص الثّقافي بدلاً من النّص الأدبي بالمعنى الجمالي للنص. ويذهب إلى فكرة على قدر من الأهميّة أوردتها مقدّمة عمله على أنّ: "الأرشفيف الضّخم من المتون والروايات والأشعار التي أنتجها أسلافنا عن الثّقافات والهويات الأخرى، لم تكن من باب الوصف الموضوعي المحايد، وما ينبغي لها أن تُقرأ كذلك، فهي خطاب تمثيلي ينطوي على رغبات وتصورات وافتراسات وأحكام قيمية مسبقة. وهي ساحة يمتزج فيها الخيالي والعجائبي، والرّغبوي بالحقيقي والوثائقي". (نادر كاظم 2004).

ويدعو الباحث من خلال دراسته إلى ضرورة دراسة هذا الأرشيف الضخم ولا يُهمل ويبقى دون قراءة ونقد وتحليل، لذلك نجد أن دراسته قد تصدت لقراءة التمثيلي الثقافي التخيلي وغير التخيلي، "الذي مارسه الثقافة العربية على الأسود بوصفه آخر خارجيا يقبع هناك في مجاهل إفريقيا النائية، وبوصفه كذلك آخر داخلها ميزته هذه الثقافة بسواد لونه، مع أنه ولد أو ترعرع في محيط هذه الثقافة" (نادر كاظم، 2004).

وبعد الاطلاع على دراسة "نادر كاظم"، نجد أنه على خلاف "رضوى عاشور" قد اقتصر اشتغاله على نصوص من التراث العربي القاسم المشترك بينها تصوير الأسود والحفر في آليات تمثيله في نصوص التراث العربي سواء أكان سرداً أم شعراً، في الأدب الرسمي أو الشعبي. كما ركز على أبرز المرجعيات والمحرركات الخفية التي كانت تحرك هذا المتخيل، وهنا ركز الناقد على مرجعية التاريخ ومرجعية الأنساق الثقافية. وبعدها عرج على معالجة محتويات المتخيل الثقافي غير التخيلي وما اختزله عن الأسود من صور نمطية انتقاصية، وقد خصّ في جزئية أخرى "الأسود والتمثيل السردى"، وقد ركز على تناول المرويات الكبرى في الثقافة العربية خلال القرون الوسطى.

لقد كان للأسود حضور لافت في التراث السردى الشعبي مثل: "سيرة الأميرة ذات الهمّة"، و"سيف بن ذي يزن"، و"ألف ليلة وليلة". ولم يتوقف "نادر كاظم" عند الأدب الشعبي والتراث السردى بل اشتغل على جملة من التمثيلات التي أنتجها الشعر العربي عن الأسود، وهنا نجد الباحث في صميم الدراسات الثقافية، لأنه استلهم مفهومهما هاماً من المفاهيم التي يعنى بها واحد من أهم المجالات التي يعنى بها الدرس الثقافي، وهو دراسات ما بعد الكولونيالية (Postcolonial) (studies)، وهذا المفهوم هو القراءة الطباقية (Contrapuntal) (reading)، وهو نوع من القراءة التي مارسها "نادر كاظم" أسوة بإدوارد سعيد فهذا المفهوم يعود إليه.

إنّ واحداً من أهداف "القراءة الطباقية" كما يمارسها "إدوارد سعيد" وضع الأدب الغربي، وخاصة هذا الذي تم إنتاجه وقت السيطرة الإمبريالية، تحت ضوء جديد وفتحته أمام خط جديد من التحليل لا يتجاوب فقط مع القيمة الفنية للأعمال الحضارية، بل يُركّز أيضاً على الدور الذي لعبته هذه الأعمال في إنجاز المشروع الإمبريالي. (دعاء نبيل إمباي، 2005).

وكما أنّ "إدوارد سعيد" مارس القراءة الطّباقيّة على نصوص غربيّة فإنّ "نادر كاظم" استلهم هذا المفهوم وطبقه على التّراث العربي، أين وضح أنّ مدى تحدّث الثّقافة المهيمنة بصوت واحد واحتكارها سبل الحديث، وتسعى إلى امتلاك أدوات التّمثيل امتلاكاً كلياً. ووضّح من خلال أمثلة من الثّقافة العربيّة أنّه توجد أصوات مهمّشة ومُبعدة عن المركز عملت على تقويضه، والتّصدي له وسعت إلى أنّ تؤسّس خطاباً خاصاً بها. (نادر كاظم، 2004).

وما تجدر الإشارة إليه أنّ نادر كاظم قد عاد إلى مقولات فكريّة غربيّة، واقتبس من مقولات "ميشيل فوكو" (Michel Foucault) حول "التّمثيل" (representation) مستنداً إلى دراسات "فوكو" الهامّة حول هذا الموضوع من خلال عمله: "الكلمات والأشياء" Les mots et les choses و "المراقبة والمعاقبة" موضحاً أنّ مفهوم التّمثيل الذي اشتغل عليه "نادر كاظم" هو ذاته مفهوم التّمثيل الذي وظفه "فوكو" والذي يقصد به: التّمثيل بوصفه الإستراتيجيّة الأكثر شيوعاً في إنتاج المعرفة (...) التّمثيل بوصفه آليّة من آليات الهيمنة".

ومن خلال القراءة المعمّقة والمستفيضة لدراسة "نادر كاظم" نلمس أنّه استفاد من التّحليل الجينيولوجي للمعرفة، حيث بيّن أنّ المعرفة مبنوثة بإرادة القوة والهيمنة دائماً. والملاحظ أيضاً أنّ الباحث لم يتوقّف عند مقولات "فوكو" بل أفاد من آليات القراءة التي وظفها "إدوارد سعيد"، ويلمّس تأثره الضّمني والصّريح به. ويظهر هذا في النّصوص التي اشتغل عليها الباحث، وفي الطّريقة التي اعتمدها في تحليل النّصوص محل الدّراسة ذلك أنّه توصل إلى استخراج الصّور النّمطيّة عن السّود التي تزخر بها الثّقافة العربيّة والتي امتدت عبر حقول معرفيّة متنوّعة شملت الجغرافيا والرحلات والتّاريخ والطّب.

ومن خلال هذه النّصوص ساءل النّاقّد التّاريخ ومرجعيّة الأنساق الثّقافيّة، فهو يرى أنّ لها دوراً كبيراً في توجيه المتخيل الجمعيّ بشكل عام. "رؤى كانت ترى في الأسود بشكل غير تامّ وغير مكتمل، فهو في درجة وسطى بين البهائم والبشر" (نادر كاظم 2004).

يرى الباحث أنّ الثّقافة العربيّة الإسلاميّة كأيّة ثقافة تسعى إلى تمثيل آخر خارجي عنها، كانت بحاجة إلى تمثيل الآخرين بهدف تشكيل الهويّة وحراستها من الاختلاط بغيرها. (نادر كاظم 2004).

وقد توصل "نادر كاظم" من خلال قراءته الثقافية للنصوص إلى أن الأسود مثال للعبودية، وهو دائما شهواني، ومفرط في رغبته الجنسية بحسب ما هو راسخ في قصص ألف ليلة وليلة، وغيرها من النصوص التي يزخر بها التراث العربي، وخاصة المرويات الشعبية. ومن النتائج التي توصل إليها الناقد من خلال قراءته الثقافية للنصوص المختلفة أن الثقافة العربية الإسلامية استعملت وسائل إقصاء الآخر، وفرض الهيمنة عليه من خلال نوعين من العنف، عنف مادي خشن باستخدام قوة اليد والسلاح وعنف مادي ناعم وملطف إيديولوجي أو رمزي، كما يسميه "بيير بورديو" Pierre BORDIEUX، والثقافة العربية حسب "نادر كاظم" قد استخدمت كلا النوعين. (نادر كاظم، 2004).

وواصل الباحث تشرجه للمقع الإيديولوجي للأسود، ووضح كيف تم استحضار الأسود شعريا كطرف في التشبيه الشعري، أو كموضوع للهجاء المقذع المباشر والصريح (نادر كاظم، 2004)

وقد أعطى أمثلة عن هذا العنف المباشر مثلما تجسّد ذلك في موقف ابن الرومي والمتنبي من الأسود الزنجي، أما العنف غير المباشر، فهو سعي الخطاب الشعري القديم إلى شعرنة الأسود الزنجي وتحويله إلى موضوع شعري يتم استحضاره بالوصف والتشبيه مثلما يستحضر الجمل والناقة. (نادر كاظم، 2004).

وما ركّز عليه الناقد هو نوع من الخطاب المضاد الذي تبناه شعراء السودان حاولوا تقويض الصورة النمطية التي رُسّمت عنهم، وحاولوا التصدي لهيمنة السلطة مثل "عنتر بن شداد" و"أبودلامة" و"سُحيم عبد بني الحسحاس"، وغيرهم ممن حاولوا تشكيل صورة مختلفة عن تلك التي شكّلها المتخيل العربي السائد.

5. خاتمة: تمثّل الدّراسات الثّقافيّة قفزة نوعيّة في المجال النّقدي، فهي ثورة أكاديميّة في الدّراسات النّقديّة، تجاوزت الاهتمام بالقراءة المحايثة للنصوص وتجاوزت التّركيز على الجانب الجمالي للنص، وركزت جهدها على قراءة الأنساق الثّقافيّة المضمرّة. لم يكن النّقد العربي بمنأى عن تطوّرات السّاحة النّقديّة الغربيّة، بل واكبها وتمثّل مفاهيمها وحاول إسقاطها على نصوص من التّراث العربي كما كان الأمر مع تجربة "نادر كاظم"، وفي الوقت ذاته انفتح عدد من النّقاد العرب على المؤثّرات الأجنبيّة ودرسوا نصوصا غربيّة، وحاولوا تقديم قراءة مضادة لها مثلما كان الأمر مع "رضوى عاشور" التي اهتمت بالثقافة الغربيّة بحكم تخصّصها في الأدب المقارن، وإلى جانب دراستها لنصوص عربيّة سلّطت الصّوء على نصوص من الثّقافة الأجنبيّة مستلهمة مقولات الدّراسات الثّقافيّة، وقامت بتقديم مقارنة ما بعد كولونياليّة (Postcolonial approach)؛ لنص كولونيالي بامتياز، وهو "قلب الظّلام" لجوزيف كونراد.

6. قائمة المراجع:

- 1- زيودين ساردارويورين فان لون: أقدم لك الدراسات الثقافية ترجمة: وفاء عبد القادر مراجعة وإشراف وتقديم: إمام عبد الفتاح إمام المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، 2003 ص 7.
- 2- رضوى عاشور: التابع ينهض - الرواية في غرب إفريقيا، دار الشروق الطبعة الأولى 2016، ص 7.
- 3- رامي أبو شهاب: الرّسّيس والمختلّة - خطاب ما بعد الكولونيالية في النّقد العربي المعاصر (النّظرية والتّطبيق)، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر، الطبعة الأولى، 2013 ص 288.
- 4- رضوى عاشور: التابع ينهض - الرواية في غرب إفريقيا، مرجع سابق، ص 140.
- 5- المرجع نفسه، ص 140.
- 6- المرجع نفسه، ص 143.
- 7- ينظر: المرجع نفسه، ص 145.
- 8- ينظر: رضوى عاشور: صيادو الذاكرة - مقالات نقدية -، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء - المغرب / بيروت - لبنان)، الطبعة الأولى 2001، ص 66.
- 9- المرجع نفسه، ص 146.
- 10- المرجع نفسه ص 148.
- 11- المرجع نفسه، ص 148.
- 12- المرجع نفسه، ص 150.

- 13- نادر كاظم: تمثيلات الآخر -صورة السّود في المتخيل العربي الوسيط-، المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر، الطّبعة الأولى، 2004 ص 19 و20.
- 14- المرجع نفسه، ص 20.
- 15- المرجع نفسه، ص 24.
- 16- المرجع نفسه، ص 24.
- 17- دعاء نبيل إمبابي: قراءة لبعض مفاهيم إدوارد سعيد النّقديّة مجلة ألف: البلاغة المقارنة، الجامعة الأمريكيّة، القاهرة، العدد الخامس والعشرون، 2005 ص 63.
- 18- نادر كاظم: تمثيلات الآخر -صورة السّود في المتخيل العربي الوسيط-، مرجع سابق ص 450.
- 19- المرجع نفسه، ص 163.
- 20- المرجع نفسه، ص 166.
- 21- المرجع نفسه، ص 433.
- 22- المرجع نفسه، ص 434.
- 23- المرجع نفسه، ص 434.